

الزمان والمكان . فالمجتمع ظاهرة متطورة ، ومع تطوره تتطور
حقائقه ومثالياته وأحكامه ... على أن أهم هذه النقائص هو أن
رجال المنطق العقلي كثيراً ما يقومون في شرك خدعة نفسية
كبيرة ، فهم إذ يبرضون آراءهم على أنها أحكام مطلقة أو حقائق
لا مراء فيها أو بديهيات أولية ، لا ينتهيون إلى أن هذه الآراء
هي — عن غير وعي منهم — ليست في صميمها غير انعكاس
في أذهانهم لصور مادية يحيطهم بها مجتمع بعينه

وأول ما ألاحظه — تفسيراً لما أقول — أن الاهتمام الحديث
الترزايد الذي بدأ من كتابنا بدراسة الشا كل الاجتماعية المتصلة
بتوزيع الثروات لم يأت عفواً ، ولا من شهوة ذهنية طارئة
هبطت على عقولهم من عالم الفكر المجرد ... وإنما هناك حقائق
مادية جديدة قد نشأت في المجتمع المصري هي التي انغلت في أذهان
هؤلاء للكتاب وبشتمهم على التفكير فيها وعرض الآراء والحلول ؛
وهذه الحقائق — ككل الحقائق الاجتماعية — في حركة وتطور
مستمر ، وهي لا تتحرك وتتطور تبعاً لما يرتأى لها المنطقيون ،
بل بفعل مطالب إنسانية تكشفت وعت إذ مهدت لتحقيقها
وسائل مادية جديدة

وعلى ذلك فأننا نعتقد أن الأسلوب الصحيح الذي يجب أن
نسلكه في دراسة مشكلة اجتماعية مثل مسألة الفقر ، هو أن
نبدأ أولاً ببحث هذه الحقائق المادية الجديدة ، وقبل أن نبدى
الآراء والحلول المنطقية أو غير المنطقية ، يجب علينا أن نتبين
جيداً الاتجاه الذي تسير إليه هذه الحقائق ، وبهذا فقط يمكن أن
يصبح تفكيرنا قوة إيجابية مجدية ، بدلاً من أن يكون مجرد
انعكاس سلبي ، قد يعبر عن « إحدى صور المجتمع » ، ولكنه
لا يعبر عن « الحركة الاجتماعية » في تطورها الخالق
والمقاد — إذ يتمد على المنطق للعقل — لم يستطع أن يأتي
بحكم واحد لا يقبل الجدل

فالفقر عند المقاد داء ، ولكننا لن ندم أديباً آخر يقرر أن
الفقر عقاب ، أو أنه تجربة من رب السموات
ونفهم من كلام المقاد أنه يريد أن يكون ربح الأفراد مساوياً
لما يقدمون للمجتمع من نفع ؛ وكلمة « المجتمع » هنا خداعة
غامضة للدول ، فأى مجتمع يقصد ؟ هل يقصد المجتمع الإنساني
شمولاً ؟ إذا كان ذلك كذلك فالمجتمع الإنساني كما نرى مقسم إلى

الفقر مسألة اجتماعية^(*)

للأستاذ رمسيس يونان

كتب الأستاذ المقاد في عدد مضي من « الرسالة »^(١) فصلاً
قيماً في مشكلة الفقر كان من بين ما كتب للكاتبون جديراً
بالدرس والتحليل

وبالرغم من دفاع الأستاذ للمقاد لتقديم المتواصل عن السائل
الماطن في حياة الإنسان ، فلا شك في أنه من رجال الفكر
المتفونين بالمنطق العقلي ؛ وهذه ميزة في بيئة تعدم في الحرافات
والآراء المنقولة والحكم المسطورة . ولكن للمنطق العقلي حدوداً
ونقائص ؛ وأولى هذه النقائص أن عرض المشاكل الاجتماعية
كما تعرض القضايا المنطقية كثيراً ما يورم الفكرين بأن حل المشاكل
الاجتماعية رهين بحل قضية اجتماعية ؛ وليس هكذا يحل المجتمع
مشكلاته ؛ وليس هكذا تتطور وتسير الحياة . ونقيصة ثانية تلازم
المتعمدين على المنطق العقلي وحده هو تزوعهم في أغلب الأحيان إلى
صياغة آرائهم في قالب الحقائق المجردة الثابتة ، وليس هناك حقائق
بوجه عام — وحقائق اجتماعية بنوع خاص — مجردة عن ظروف

(*) هذا المقال تأخر نشره سهواً

(١) أنظر عدد ٤١١

شبيهه خان فاعلمن ومكتب من فر^(١) يوماً عنهما لم يطلب
لا يحفلان أبداً بمن رحل لكل من يعرض من الناس بدل
ومهما يكن فإن لفظ (الكارى) قاتق ناب في موضعه ،
لا يتوجه إلى المعنى إلا مع الجهد والسر ، وإن فيما أثبتته الأستاذ
من التنبيه على ذلك للتبديل في التلميحات لما يحمده عليه ، وإن
كان لا يمد هنراً صالحاً لتناشر

ونسأل : ما الحكمة في أن يرفع الأستاذ هذا اللفظ من
صلب الكتاب ثم يقبته وينبه عليه في التلميحات ؟ وكيف تمسخت
هذه للكلمة وغفر لتناثرها وأشباه متفرقات في ثنايا الكتاب^(٢) ؟
(له بقية)
عبد السموم محمد هارون

(١) في الأصل : « سر » بالميم . وليس يتجه

(٢) منها ما في ٥٩ من ١١٢ ، ٧ من ١٢١ ، ١٠ من ١٣٨

س ١٨٢ ، ١٥ من ١٣ — ١٥

الغريب حقاً أن يصدر من العقاد ... فكيف يستطيع العقاد للشاعر أن يقول إنه لا تكون مفاسرة أو اقتحام إلا حيث يكون طلب الرزق ، وإن الإنسان لا ينام في سبيل غرام ، أو في سبيل كشف على أو إنتاج فني ؟ ... ولماذا لا تقول : إن روح المفاسرة إذا تحررت من هموم العيش وأعباء الثروات ، فسوف تكتشف لنفسها ميادين وآفاقاً جديدة هي أجدر بمواطن الإنسان ؟ ...

ويرى العقاد - كما يرى غيره - أن « للعالم مدين للمصاميين » ؛ وهذا رأى أقل ما يقال إنه مشكوك فيه ...

فإن عدد الفلاحين المنود والمصبيين يزيد على نصف سكان هذا العالم ؛ فهل يمكن أن يقال مثلاً : إن هؤلاء الفلاحين مدينون بشيء للمصاميين ؟ ... ولكن لفرض جدلاً أن هذا الرأى صحيح ، فمن الصحيح أيضاً أن نقول : إن للفلسفة والفنون الإغريقية مدينة لنظام الرق ... وإن الديمقراطية الإنجليزية مدينة للفقر المدقع الذى يعانىه فلاحو الهند ... فلولا وجود

المبيد عند الإغريق لما استطاع « السادة » أن يتفخروا بالتفكير الجرد واليبحث عن المثل العليا ، ولما ازدهرت عندهم فلسفة أو فنون ... ولولا الأجر المنحطة التى بناها فلاحو الهند لما أمكن المستمر أن يربح هذه الأرباح الطائلة التى بدونها لما يتيسر للحكومة الإنجليزية أن تتقدم لهاها بمشروعات الإصلاح والإعطانات والهيآت الكثيرة . ولكن لولا هذه الإعانات والهيآت لا نتظرنا أن تنشط بين الممال الإنجليزية الحركة الشيوعية كما نشطت فى ألمانيا ؛ وفى هذه الحالة ، لا يكون غريباً أن للطبقة الحاكمة الإنجليزية كانت تلجأ إلى النظام الدكتاتورى لقمع هذه الحركة ولكننا إذا قلنا إن للفنون الإغريقية مدينة للمبيد ، وإن الديمقراطية الإنجليزية مدينة لفقر الفلاحين المنود ، فليس معنى ذلك أن نظام الرق كان يجب ألا يزول ، أو أن فقر الفلاحين المنود ينبغي أن يستمر ... وكذلك إذا صح أن للعالم مدين للمصاميين ، فليس صحيحاً أن للعالم سيقى مديناً لهم أبداً الأبدى . فهما تكن قيمة الدور التاريخى الذى لعبه المصاميون فى تطور الاقتصاد العالمى فى القرنين الماضيين ، فإن كل الحقائق تدل على أن ما يسميه العقاد « البراعة المالية » ليست فى الوقت الحاضر

مجتمعات كثيرة تضارب مصالحها إلى حد يصل بها إلى حرب شنيمة كالحرب الحاضرة . وعلى ذلك فالرجل الذى يمد نافعاً أكبر للثمن بالنسبة للمجتمع الألمانى مثلاً قد يمد مجرماً بالنسبة للمجتمع البريطانى . أما إذا كان العقاد يقصد « بالمجتمع » أمة بأكملها ، فالأم كما نرى أيضاً مقسمة إلى طبقات ذات مصالح متعارضة . فإذا اكتشف عامل مثلاً وسيلة جديدة يلجأ إليها الممال ليرغموا بها أصحاب المصانع على زيادة أجورهم ، عُد هذا العامل مفيداً أكبر للفائدة بالنسبة لطبقة الممال ، ولكنه لن يمد كذلك فى نظر الطبقة التى تملك المصانع

والربح عند العقاد منه الحلال ومنه الحرام ؛ وليس لمقاييس الحلال والحرام ثبات ؛ فكل مجتمع مقاييسه التى تنشأ منه لتوافق مصالح الطبقة الحاكمة . فانتصاب ثروات الآخرين بالقوة مثلاً يمد إجراماً فى معظم المجتمعات الحاضرة ، ولكنه لا يمد كذلك فى كل المجتمعات ، ولم يكن يمد كذلك فى كل المصور ، بل هو ما زال يمد عملاً من أعمال البطولة فى ساحات الحروب ... ويستنكر العقاد أن « يكون الجزاء الوافى حظ المثل الذى لا يستحق أن يمرض رجولته للفضوليات من المتفرجات » ؛ وقد يشارك العقاد فى هذا الرأى قوم كثيرون ، ولكنه من المؤكد أن (للفضوليات من المتفرجات) لا يشاركه إياه

ومن الحقائق التى لا حراء فيها عند العقاد « أن حياة الإنسان كأنها ما كان أنف من القوت والكساء ... » ؛ فلماذا لا نضيف إلى ذلك أن حياة الإنسان كأنها ما كان هو أنف أيضاً من سيارة رشيقة ، ودار أنيقة ، تحيطها حديقة موردة ؟ ... فإذا قيل لنا : إن الإنسان يموت إذا حرم للقوت والكساء ، ولا يموت إذا حرم سيارة أو حديقة ، فنقل : إن الحياة لا تعنى عدم الموت فقط ، وإن الحياة بغير ممتعة إيجابية هى والموت سيات

ومن الحقائق أيضاً عند العقاد أن « الأمان كل الأمان خطر على المم والأذهان » ؛ وهو يريد أن يقول بذلك أنه لو اطمان كل فرد إلى قوته وكسائه ، فقدنا من بنى الإنسان المنصر المقتحم للناس ، « ومنى للعالم بخطر من جراء ذلك ، هو أخطر عليه من الإجهاف فى تقسيم بعض الأعمال ، وتوزيع بعض الأرزاق ... ولو صدر هذا القول من اسماعيل صدق مثلاً لمذناه ... ولكن

ناحية أخرى . ورجال الأعمال يبشون في جو مادي ، ولم
أساليب في التفكير ، ولم مصالح اقتصادية تختلف عن نظائرها
عند أولئك الذين تعتمد ثروتهم على ملكية الأراضي المزروعة .
فن مصلحة رجال الأعمال مثلاً أن ينتشر التعليم ، لأن المصانع
محتاجة إلى العدد الوفير من العمال الفنيين وإلى العلماء والمهندسين
وماسكي المقار... وليس لطبقة ملاك الأرض مصلحة ما في أن
يستخدم نصيب من الضرائب المفروضة عليها في إنشاء المدارس
الفنية . . . فالزراعة في مصر ما زالت تمير على الطرق البدائية
التي كانت تمير عليها في عصور الفراعنة . وما دامت الأيدي
العاملة في الزراعة رخيصة إلى الحد الذي نراه ، فلن يسي ملاك
الأرض إلى استخدام الآلات الزراعية الحديثة الغالية الأثمان ،
ولن يحتاجوا تبعاً لذلك إلى التطين تملأ فنياً إلا بقدر ضئيل .
وهذا هو السبب الأساسي في نكبة خريجي مدارس الزراعة على
قلهم في بلد تعيش أغلبته على الإنتاج الزراعي

وهذا في رأينا هو بعض التصغير المادي للمجادلات الصحفية
التي كثرت في السنوات الأخيرة عن التعليم في مصر وضروره
توسيعه أو تحديده أو تغيير مناهجه

وقد تنبه رجال الأعمال في مصر من وقت ظهورهم إلى أن
العقبة الأولى التي تقف في سبيل توسعهم للصناعات ورواج بضائعهم
هي المنافسة الأجنبية . ومن هنا كانت الدعوة إلى الوطنية
الاقتصادية التي لعبت دورها أولاً في حركة الاستقلال وإنهاء
الامتيازات ، ثم استحوالت دعوة مستقلة لتشجيع الصناعات
المصرية ...

أما للعقبة الثانية — وقد بدأ التنبه إليها حديثاً — فهي
ضعف السوق المحلية . وما دامت الصناعة المصرية لا تطلع
في منافسة الصناعة الغربية في الأسواق الأجنبية ، فهي
مضطرة إلى الاعتماد قبل كل شيء على السوق المحلية . ولكن
ما دام هناك أربعة عشر مليوناً من سكان مصر لا يكادون
لفقرهم أن يستهلكوا شيئاً من الصنوعات ، فلا أمل لأرباب
للصناعة المصرية في الإنتاج الضخم الذي يدر الأرباح الطائلة
على زملائهم في الغرب .

رسميس برنان

(البقية في العدد القادم)

كما يقول « لازمة لتأسيس المرافق الإجتماعية والأخلاق القومية
وتنظيم العلاقات واستشارة المهتم وتوزيع الأعمال التي لا يستبحر
بغيرها عمران ... » بل إنها على العكس من ذلك تؤدي بالملم
الآن إلى أشنع تمزيق وتخريب وتدمير عرفه الإنسان ...

فلا وجود للمصائبين بشير تنافس اقتصادي ؛ والتنافس
الاقتصادي العالمي هو المسؤول الأول عن الحرب الماضية وعن
الحرب الحاضرة . ولنا نغظ من مخلوق به مسكة من الشعوب
الإنسانية أن يقول إن هذه الحرب في ذاتها بركة للإنسان .
هذا وإن كنا نأمل — بعد أن فشلت الحرب الماضية في تقيبه
للسعوب تنبهاً كافياً إلى عواقب التنافس الاقتصادي — أن
تكون نتيجة هذه الحرب الحاضرة هو القضاء فعلاً على النظام
الاقتصادي الذي يؤدي لتكالب فيه على جمع الثروات إلى السجل
والاحتيايل من ناحية ، وإلى الشقاء والمرض والحروب الممجية
من ناحية أخرى ...

ولا شك أن الفقر — كصفة لاسقة بحياة الأغلبية من
الشعب المصري — ظاهرة قديمة ترجع إلى عصور ما قبل
التاريخ . فما الذي جد إذاً على فقراء مصر حتى أصبحت لهم مسألة
تشغل بال كثير من الأعيان ، ويهم لها المفكرون ، وتقلق
أدياء كانوا يؤثرون الهدوء والراحة في مخادع البرج العاجي ... ؟
قد يكون صحيحاً أن بعض الأدياء والمفكرين المصريين قد
تأثروا بالأدب والتفكير الاوربي الحديث الذي يبالغ مشاكل
الاقتصاد وتوزيع الثروات ، وهي أم المشكلات في الحياة الأوربية
المعاصرة ؛ ولكن هذا التأثير كان يبق شيئاً خاصاً بأفراد ، لا قيمة
اجتماعية له ، ولا يثير اهتمام الرأي العام ، لو لم تكن حياتنا
الاجتماعية قد تأثرت تأثراً مادياً بالمدنية الغربية

ولقد اقتبسنا عن الغرب أشياء كثيرة ؛ منها مظاهر سطحية
كأساليب الأكل واللباس ، ومنها مظاهر أعمق كأساليب
التشريع والقضاء والتعليم ؛ ولكن وراء كل هذه المظاهر يكن
تأثر مادي أساسي ، هو اقتباسنا لبعض الأساليب الحديثة
في إنتاج الثروات ، أي لبعض الصناعات الآلية التي نمت في مصر
نمواً مطرداً في السنوات الأخيرة

ودخول الصناعة الحديثة في مصر معناه نشوء طبقتين
جدينتين : طبقة رجال الأعمال من ناحية ، وطبقة العمال من